ثقافتنا السمعية أساس البلاء !

نشأت البشرية ، وسارت آمادًا طويلة ، قبل أن تعرف حديث المنطق وأسلوب العلم ومفهوم الرياضيات ونظام التدوين ، فكانت معارفها مضطربة مشوشة متداخلة ؛ وكانت معلوماتها تنتقل من فم إلى أذن ومن أذن إلى فم ؛ أى إنها كانت – بالمفهوم العام لمعنى الثقافة – ، ثقافة سمعية ، وفى نطاق هذه الثقافة تشكّل التراث البشرى ، وتقولب الوجدان الإنسانى ، وتحدد العقل الواعى وغير الواعى ؛ وأصبح الخروج من هذه الثقافة السمعية ونتائجها الحادة أمرًا ليس سهلاً ولا ميسورًا ، لما يقتضيه من علم فائق وإرادة فذة ودأب شديد ، لا يعم ولا ينتشر إلا إذا تضافرت الجهود البشرية معًا ، وتناسجت المعارف الإنسانية فى شكل جديد .

وعندما نشأ العلم ، بحركة العقل ضمن أساليب منطقية وصيغ رياضية ونظريات هندسية وتركيبات علمية ، نشأ ببطء شديد وفى مراكز بعيدة عن الشعوب نائية عن التأثير فيها ، أهمها معابد مصر القديمة . ففى هذه المعابد نشأ العلم بمفهومه السليم ، غير أنه لم يتخذ أسلوب التدوين ، بل ظل يسلك مسالك الثقافة

السمعية ، فينتقل من فم إلى أذن ومن أذن إلى فم ؛ وإن يكن ذلك بصورة أدق وشكل أضبط . وعلى الرغم من اندثار أسس العلم المصرى القديم فإن ما نتج عنه من أبنية وتلوين وتحنيط وطب وزخرفة وفكر يدلّ على أنه قام على فهم صحيح لكثير من المعارف الكونية والإنسانية ، وسار بفضل منهج قويم للبحث والفكر .

وقد وفد على مصر كثير من أبناء الإغريق لينهلوا من ثقافتها ويشربوا من روحها ؛ فزارها طاليس (مؤسس أول مدرسة فلسفية فى جزيرة أيونيا ، فى القرن الرابع قبل الميلاد) ، كما زارها فيثاغورس (ناقل النّحل الصوفية إلى الغرب وأستاذ الهندسة الشهير) ، وأفلاطون الفيلسوف (تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو) ، لكن المستفاد مما ورد فى كتابات أفلاطون وهيرودوت أن كهنة مصر القديمة ضنوا بمعارفهم على أبناء الإغريق وقدموا لهم مجرد شذرات منها ، ولم تكن هذه الشذرات قادرة على تكوين ثقافة علمية شاملة ، لكنها كانت كافية لتحريك عقول الإغريق ، فنشأت المدارس الفلسفية فيها بأسلوب الثقافة السمعية التى تختلط بالمناهج العلمية ، وتحاول جهدها أن تصل إلى ثقافة علمية غير سمعية ؛ لكن ذلك كان يقتضى وقتًا طويلاً وتغييرًا شاملاً فى أسس الثقافة وتكوين المجتمع ؛ لأن الطبيعة البشرية

كانت – نتيجة ضغط الموروثات وشدة التقاليد – معادية لأى ثقافة ليست سمعية ، وفى ذلك يقول أفلاطون فى محاورة « فيدروس » (٢٧٤ – ٢٧٧) باب الرسالة السابعة « ضد الكتابة » ، على لسان سقراط وهو يحاور ، « إن الكتابة غير إنسانية إذ تزعم أنها تنشئ خارج العقل ما لا يمكن فى الحقيقة إلا أن يكون داخله » ، من هذا الفهم لم يكن غريبًا أن يفرغ أفلاطون أغلب أفكاره الفلسفية فى هيئة حوار بين أستاذه سقراط وتلاميذه ، وهو أسلوب من أساليب الثقافة السمعية ، ولم يتحول أفلاطون إلى الثقافة العلمية إلا فى بعض كتبه مثل « الجمهورية » الذى يشتمل على كافة الأفكار السياسية التى تحكم العالم منذ عصره وحتى الآن ، وخاصة فيما يتعلق بالنظم الشمولية والأيدلوجيات السياسية .

فالكتابة ليست كافية لكى يتحول الكاتب من الثقافة السمعية إلى الثقافة العلمية ، بل إن هذا التحول منوط بتشرب الكاتب للمنهج العلمى والثقافة العلمية وابتعاده بوعى واقتدار عن الثقافة السمعية ، بهذا المعيار يمكن تفهم السبب الذى يدفع كثيرًا من الكتاب إلى كتابة مؤلفاتهم بتأثير الثقافة السمعية ، فتكون هذه الكتابة مجرد حديث إلى القارئ ، يحرره الكاتب كأنما هو يتكلم ، أو وهو يتكلم فعلاً ، وبذلك يتجافى مع المنطق ويتنافى

مع العقل فى كثير من مفاهيمه ، بل وينأى عن التركيب الفكرى ويكون مجرد شذرات من قول أو شطحات من فهم .

ولما كانت أغلب المنظومات المعتقدية والموروثات الشعبية والتقاليد الاجتماعية قد نشأت فى أحضان الثقافة السمعية فترسمت صفاتها وتوسمت خصائصها ، فقد كان من نتيجة ذلك أن حكمت هذه التقاليد وتلك الموروثات وهاتيك المنظومات عقول البشر وسيطرت على وجداناتهم ، فعاقت نموهم الطبيعى وحالت دون انتقالهم إلى الرشد والحكمة ، حين حجبتهم عن المنهج العلمى وفصلتهم عن الثقافة العلمية .

ومما يلحظ كمثال على ذلك أنه على الرغم من الكفاح الباسل للإغريق للوصول إلى الثقافة العلمية ، فإن كتاب « الإلياذة والأوديسا » لهوميروس عرقل خطاهم وعاق جهودهم ، لأنه مؤلَّف صدر عن (أميّ) ، فى عهد الثقافة السمعية ، وأثر فى الإغريق جميعًا ، فجعل تخلصهم من هذه الثقافة السمعية أمرًا من الصعوبة بمكان ؛ وهو ما ظهر أثره فى المدارس الفلسفية الأولى ، بل وحتى أفلاطون نفسه ؛ فمصنف واحد يكفى لتكريس الثقافة السمعية وترسيخ كل خصائصها فى جماعة أو شعب أو أمة ، إن كان هذا المصنف نتاجًا للثقافة السمعية ، واشتد أثره على الناس .

وقد ظلت البشرية تحت تأثير الثقافة السمعية حتى ظهر المنهج العلمى الحديث ، إثر عصر الاستنارة ، فبدأ أسلوب جديد فى التربية والتعليم ، يعتمد على أن يستوى العقل الإنسانى على روح البحث ، ويستقيم على منهج الفحص ، ويستقر عند أسلوب النقد ، فالبحث الحر والفحص السليم والنقد السديد يمكّن للإنسان أن يتخلص شيئًا فشيئًا من الثقافة السمعية وآثارها ، وينقله إلى الثقافة العلمية وآفاقها . وعلى الرغم من انتشار الأسلوب الجديد للتربية والتعليم فى شتى أنحاء المعمورة ، غربًا وشرقًا ، فإن بعض الأمم وبعض المناطق تأبّت على هذا الأسلوب واستعصت على قبوله ، لاعتبارات عدة ، فظلت تحت تأثير الثقافة السمعية بكل سوالبها ، وحتى من تعلم منهم فقد فصم عقله وشطر روحه ، فأصبح يباشر مهنته أو عمله بالأسلوب العلمى ، بينما ظل فى جانب الأفكار الاعتقادية والمأثورات الاجتماعية والمفاهيم التقليدية تحت تأثير الثقافة السمعية ؛ تحكمه أفكار مغلوطة مضطربة ، وتسيّره عادات فاسدة مختلطة ، وتدفعه إلى أى اتجاه إشاعات موهومة مغرضة .

الفارق بين الثقافة السمعية والثقافة العلمية ليس سهلاً ، ولا هو عبث أو ترف ؛ إنه ضرورة لابد منها لتجلية الحقائق الفطرية وترقية المعارف الإنسانية وصحة الحياة الروحية والنفسية والعقلية .

ذلك أن للثقافة السمعية نواتج مدمرة وآثارًا مخربة تنال من الفرد كما تهزّ المجتمع ، وتعرقل نمو هذا وذاك ، وهذه الآثـــار وتلك النواتج كثيرة متفرعة غير أننا نجتزئ منها أهم ثلاثة :

(أ) فالثقافة السمعية تجعل من الحديث والكلام أسلوبًا للفعل ، وبديلاً عنه ، وتفصلهما (الحديث والكلام) عن العقل فلا يكون أى منهما نتاجًا له ، بمعنى أن هذه الثقافة تكافئ بين القول والفعل ، فمن قال كأنه فعل ، ومن ثم فعلى المتأثر بها أن يقول ويقول ، ويكثر من الحديث ويزيد من الكلام ، دون أن يفعل شيئًا ؛ لأنه سوف يكون معتقدًا بأنه مادام قد قال فقد فعل ، وبذلك يغنى القول عن الفعل ويغنى الحديث عن العمل . وفى الثقافة السمعية لا يكون القول والحديث والكلام نتاجًا للعقل ، بل غالبًا ما يكون ترديدًا لمقولبات (كليشيهات) ، أو نقلاً لإشاعات ، أو مداولة لحكايات .

بهذا المفهوم فإن الثقافة السمعية تحتفى باللفظ أكثر من المعنى ، وتهتم بالإشاعات دون تحقيق ، وتعنى بالحكايات بغير تمحيص ، والكلام عندها ألفاظ متراصة بلا تحديد ، وجمل متواصلة فى اتزان مستمر وإيقاع دائم وقوافى بغير نهاية . بهذا يؤدى رنين

الألفاظ وجرس الإيقاع وموسيقى القوافى إلى تغييب أى ملكة عقلية وأى روح بحثية وأى اتجاهات نقدية بما يعطى للكلام قيمة أكثر من حقيقته ويضفى على الحديث سحرًا يأخذ بالألباب (وقديما قيل : إن من البيان لسحرا) .

فى مثل هذا الحال لا يمكن للعقل أن يتحول إلى الثقافة العلمية بغير صعوبة شديدة ومران أشد ، لأن هذا العقل سوف يظل دائمًا عاجزًا عن استيعاب الأساليب المنطقية ، والحديث من خلال صيغ علمية ، والتفكير بنظام المعادلات الرياضية ، والتفاهم من خلال تركيبات عقلية .

(ب) والثقافة السمعية تقصُر عن التجريد وإدراك المجردات فتلجأ إلى التشخيص واستعمال المشخّصات ، أى أنه لابد لهذه الثقافة من وجود شىء شخصى ومُشخَّص كَىْ تفهم وتدرك ، لأنها لا تستطيع تمثل المجردات ولا تقدر على عملية التجريد .

ولهذا الفهم بالمشخّص بدلاً من المجرد ، والكلام بالتشخيص عوضًا عن التجريد ، أثر بالغ السوء على العلم وعلى الفهم الدينى سواء بسواء .

فالعلم بطبيعته تجريد للحقائق ، والعلم المعاصر – والتقنية

خاصة – لا يمكن أن تُدرك وتُستوعب إلا من خلال معادلات رياضية ، ونظريات هندسية ، وصيغ حسابية ، وافتراضات منطقية ، ودالاّت فزيائية ، وتصورات كيميائية . والثقافة العاجزة عن التجريد لن يكون بإمكانها تصور أى من هذه المجردات ، وبذلك تظل معزولة عن العلم الحقيقى محجوبة عن التقنية الصحيحة ؛ ومن ثم تكون نابية عن روح العصر نائية عن حقائق الحياة .

والدين فى جوهره إدراك للألوهية فى هيئة تجريدية غير مشخصة ، فإذا لم يستطع ربيب الثقافة السمعية إدراك الألوهية فى طبيعتها الحقيقية ، فلابد أن يلجأ إلى صورة مشخصة أو أيقونة مادية ، أو رمز مجسد أو بناء لضريح ، يعوض به عجزه عن الفهم الصحيح ويجد به عوضا عن قصوره البالغ ؛ وفى ذلك إساءة لروح الدين وانحراف عن جوهره الأصيل .

(حـ) والثقافة اللفظية تدور فى الوجدان ، وتلعب بالعواطف وتضرب على أوتار المشاعر . ولأنها بذلك تكون محجوبة عن التوازن العقلى الهادئ والاتزان النفسى الثابت ، فإنها تظل على الدوام محمومة متأججة مشتعلة مستعرة ، تجنح إلى أقصى اليمين ، أو إلى أقصى اليسار ، دونما ضوابط واضحة أو أسباب معقولة . وفى هذه الحمّى المتأججة والنار المشتعلة المستعرة تذوب إرادة

الناس وتخترق قدراتهم التعادلية ، وتطفو على السطح ميول فصامية تفصلهم عن ذواتهم وعن مجتمعاتهم وعن الواقع بأكمله ، وهو أمر لابد أن يظهر من خلال اضطراب خارجى متطرف ، يؤدى لا محالة إلى العنف المادى أو المعنوى ، فيوجد شخصية عدوانية بالقول أو بالفعل ، تعتدى لمجرد العدوان الذى ينفّس عن اضطرابها الداخلى الشديد . وكلما زاد الاضطراب زاد العدوان حتى يبدو وكأنه مقصود لذاته ، أو يظهر وقد تعلق بهدف كاذب أو غرض مضلل .

ولأن الثقافة السمعية ، بهذه العدوانية ، تبحث لها عن موضوع يستفرغ طاقتها ، فهى تنحدر إلى الافتخارية ، أو تنحرف إلى الهجائية ، كل موضوعاتها فخر بالذات أو بالعائلة أو بالقبيلة أو بالجماعة أو هجاء للغير ، وخصومة مع أى فرد أو جماعة ؛ فهى بذلك لابد أن تمدح بشدة أو أن تقدح بغلظة ؛ أن تفتخر أو أن تخاصم ولا معادل بين الاتجاهين .

الملاحظ العدل ، غير المكابر وغير المجادل ، يستطيع أن يتبين بوضوح أن غالبية الشعب المصرى وأكثرية الأمة العربية ، تقع فى وهاد الثقافة السمعية ، ولا تستطيع منها فكاكًا ، حتى الذين تعلموا لم ينقلوا المنهج العلمى إلى ذواتهم ليحولهم إلى الثقافة العلمية ، بل إنهم قصروا الأخذ بالمنهج العلمى على المهنة أو العمل ،

وتركوا عقولهم وذواتهم حبيسة الثقافة السمعية أسيرة قصورها ؛ بل وزاد بعضهم فعمل على استغلال المنهج العلمى لتأييد الثقافة السمعية ، وتشييد بناء لها ، ولو من رمال .

ومعظم الكتب التى تصدر بالعربية تصدر بمفاهيم الثقافة السمعية وأساليبها ، وكأنها فى ذلك تردد مقولة أفلاطون المعادية لاتخاذ الكتابة منهجًا للتحول إلى الثقافة العلمية ، والتى تتأدى فى أن « الكتابة غير إنسانية إذ تزعم أنها تنشئ خارج العقل ما لا يمكن فى الحقيقة إلا أن يكون داخله » ، وبهذا تبدو أغلب المصنفات العربية وهى مجرد كلام ، أو محض حديث أو بعض قول .

ونتيجة لشيوع الثقافة السمعية فى الأمة العربية ، ومنها الشعب المصرى ، فإن أبناء هذه الأمة غالبًا ما يقولون ولا يفعلون ، ومن قال منهم فكأنه فعل ، ومن أكثر القول واللغو فكأنما قد عبر البحار وشق الجبال وهزم الأعداء .

وأغلب أفراد الأمة العربية لا يعرفون القانون بل يتكلمون عن قاض (أى فرد مشخص غير مجرد) ، ولا يعنون بالدولة بل بالحاكم ؛ ويوقنون دائمًا أن الأمور تسير ، وأن المشاكل تحل بإرادة فرد ، لا بقواعد مجردة ولا بنظم محددة .

والشعر العربى يقوم أساسًا على نصف بيت ، يتلوه نصف

آخر ، ثم بيت فبيت ، وهى جميعًا متفاصلة لا تحكمها وحدة ولا يجمعها تركيب ، أما الأدب الذائع والمهيمن فهو عبارات متراصة إلى ما لا نهاية ، يداخلها الإيقاع والقوافى ، ولا تصدر عن تكوين ينمو ويتطور من الداخل ، ويتناسج بدقة ونظام وعلم .

ولا عجب بعد ذلك أن تظهر فى هذه الأمة جماعات يقوم دستورها على السمع والطاعة ، فالعضو فيها عليه أن يسمع فقط دون نقاش وبغير فهم أو نقد أو تحليل ، ثم عليه بعد ذلك أن يطيع ، فيلغى عقله ويلقى إرادته ، ولا يكون إلا مسخا تدفعه الأوامر إلى أى اتجاه ؛ وهذا أخطر ما ينتج عن الثقافة السمعية .

على أن هذه الثقافة ليست خاصة فطرية وليست خصيصة وراثية ، لكنها مرحلة وظروف اجتماعية مرت وتمر بها كل الأمم ، والذى يقول بغير ذلك يبدأ أو يؤيد دعاوى عنصرية ترى أن بعض العناصر (أو الأجناس) البشرية أرقى أو أدنى من غيرها لخواص فطرية وخصائص وراثية ، وهو أمر لم يثبته العلم وليس عليه دليل يقينى ، كل ما هنالك أنه ينبغى على الأمة العربية ، وعلى الشعب المصرى ، أن يدرك الحقيقة المرّة ، وهو أنه مازال يعيش فى عالم الثقافة السمعية بعيدًا عن الثقافة العلمية ، وأن لتلك الثقافة (السمعية) نواتج وآثارًا سلبية كثيرة ، فضلاً عن أنها عائق شديد أمام التقدم العلمى والازدهار

الروحى والنضج العقلى والصحة النفسية ، ومتى عُرف هذا الأمر واستقر فإنه السبيل الصحيح للوصول إلى العلاج السليم ، فمعرفة الداء نصف الطريق إلى الشفاء ، ولن يتحقق الشفاء الحقيقى إلا بعد التخلص من كل سوالب الثقافة السمعية ، والانتقال بوعى وقدرة إلى المنهج العلمى ، والثقافة العلمية التى تتمحور على وضع التعريفات ، وتحديد المناهج ، ورسم النظم ، واتباع المنطق ، ومباشرة البحث ، حتى يكون الفكر والقول والعمل قائمًا على أساليب الصيغ العلمية والمعادلات الرياضية والنظريات الهندسية ، بغير اضطراب ولا تشوش ، ودون ما حشو ولا لغو ولا هزل .

وإن لم يحدث ذلك ، وحتى يحدث ويتم ، فسوف يصدق على ريب الثقافة السمعية ما قاله الشاعر شوقى وهو يصف الشعب حين كان يهتف لحكامه (فى عصر كليوباترا) بعد أن أشاعوا لديه أنهم انتصروا فى موقعة أكتيوما وكانوا قد هُزموا فيها هزيمة منكرة :

يا لـه من ببغـاء عقلـه فى أذنيـه